AL-TAKAMUL AL-MA'RIFI |JUNE 2021 |VOL. 4 ISSUE 1
ISSN: 2716-6899 |E: ISSN: 2716-6902
www.al-takamulal-marifi.my

معالم غرائب ألفاظ الحديث للزمخشري في "الفائق": رؤية منهجية

A STUDY OF AL-ZAMAKHSHARI'S METHODOLOGY OF GHARIB AL-HADITH IN HIS BOOK AL-FAIQ

Shayuthy Abdul Mannas
Muhammad Sadiq Muhammad Ibrahim
Sultan Sharif Ali Islamic University,
Simpang 347 , Jalan Pasar Gadong,
Brunei Darussalam. BE 1310
Email: shayuthy1551@gmail.com

خلاصة البحث

إن هذه الدراسة تتركز على توضيح منهج الإمام الزمخشري في كتابه "الفائق في غريب الحديث"، ومنهج تعامله فيه فذ لم يسبق أحد قبله، لأنه تحلى من أهم الصفات التي يجب على من يريد التعمق في مجال غريب الحديث، وهو شخصية بارعة في علم اللغة العربية، وفنونها. ومن خلال شخصية المؤلف تقدم الدراسة على حقيقة هذا المجال وأهميته في استخراج المعنى المراد من ألفاظ الأحاديث الغريبة مبينا على قواعد العربية وضوابط الشريعة مطابقا لأحوال النبي ﷺ، ومقاصده. وتناولت الدراسة بشكل موجز الزمخشري الرجل، وجهوده الراقية في كتابه "الفائق"، وتوضيح منهجه مختصرة بثلاث جوانب رئيسة، وهي منهجه في ترتيب الألفاظ الغريبة وتفسيرها، ومنهجه في توثيق الأحاديث باستقصاء الدلالات، وسرد الشواهد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وأقوال العرب، ومنهجه في استنباط الأحكام من الأحاديث، وأثر مذهبه المنتمي إليه فيه. وتحاول الدراسة على استخراج أهم المعارف والفنون التي تناولها المؤلف من خلال عرض بعض الأمثلة التي سردها تأييدا على رأيه.

الكلمات الأساسية: معالم، منهج، جهود، غريب، الحديث

Abstract

This study focused on clarifying approach Imam al Zamakhshari in his book "Al-Faiq fi Ghareeb al – Hadith". His methodology of handling "Ghareeb al– Hadith" was in a

extra ordinary manner that no one achieve it before, because He has possessed the most important qualities that should be on those who want to delve deeper into the field of 'Ghareeb al– Hadith'' a witty character in the science of the Arabic language and the arts. Through the author's personal study provides the reality of this area and its importance in extracting meaning from words to be strange words al Alfadz al ghareebah according to the Arabic linguistic rules and regulations in conformity with the law of the Prophet's conditions, and purposes. The study elaborates briefly "al Zamakhshari" as a man, and his efforts in his book " Al-Faiq ", and to clarify the method briefly in the major three key aspects, His method in order of strange words and their interpretation, His approach to strengthening prophetic traditions by examining the evidences, and enumerating narrative evidence of Quranic verses and hadith, the statement of the Arabs, and his approach in excogitation of rules from prophetic traditions, and the impact of his theological view belongs to it. The study attempts to extract the most important knowledge and Arts addressed by the author through the presentation of some of the examples listed in support of his opinion.

المقدمة:

إن لمجال غريب الحديث تاريخا طويلا عند العلماء، وبدأت نشأته من فهم كلام النبي ﷺ بلهجات مختلفة أمام قبائل متنوعة في قضايا شتى، ولغاتُهم مختلفة، ومراتبُهم في الحفظ والإتقان غير متساوية كما لا تساوي قوة الفهم، والضبط، وإدراك معنى المراد من كلامه ﷺ، ثم يؤدونه بلغتِهم التي نشأ عليها، ويعبرون عنه بلسان قبيلتهم، فيجتمع في الحديث الواحد عدة ألفاظ مختلفة، مُوجِبُها شيءٌ واحدٌ (Al-Jazari, 1979).

ولا يخفى على أحد ملكة الصحابة في فهم حديث نبيهم ﷺ لأنهم رُبّوا في مراعاة النبي ﷺ وعرفوا مزاجه، ومراد حركاته وسكناته، ومعنى كلامه بالدقة والوضوح، وما خَفِيَ عليهم منه سألوه عنه، وأزالوا الإشكال عنه. وبعد انقضاءِ عصرهم، مضى المسلمون فاتحين يُبَلِّغون رسالة الله في الأرض، ومن الطبيعي أن يختلطوا ويختلط أولادهم بالأمم الأخرى، فتمتزج الألسنة، ويغيب عصرُ الفصاحة، وتَضْعُفَ سبُلُ المحافظة عليها، مع استمرار الاتصال بالأمم الأخرى، ودواعي امتزاج الألسنة والشعوب. فمن هنا بدأ الإشكال في معرفة المعاني الحقيقة للأحاديث النبوية، خاصة معاني الألفاظ الغريبة.

وأن مجال غريب الحديث لا يقتصر بمجرد مسئلة الثبوت والصحة بصحة إسناده، أو إبراز درجته، بل يتعلق بالتعمق والغوص في علم اللغة وفنونها، والتحري في تفسير الألفاظ، وعلاقتها بالحقيقة والمجاز، وعلاقتها بالسياقات، وتراكيب الكلام بعد اطلاع تام بأحوال

النبوة، وبيئتها، وأحوال مجتمع العرب بدوه وحضره، وبمعرفة مقاصد الشارع الذي أوتي بجوامع الكلم، والذي أفصح من نطق باللغة الضاد، وأهدافه. فلذلك فن غريب الحديث مازال بحاجة إلى استكمال، ووضع الضوابط والقواعد التي توصل الطلبة والدارسين علم الحديث إليه بالسهولة والدقة. ومن هنا تظهر أهمية هذا الفن، وحاجته في المجتمع، وهو المصدر الأساسي في معرفة الحكم على المتن من جهة، واستنباط الأحكام منه من جهة أخرى، وكان السَّلف يتثبتون فيه أشد تثبت.

وتكلم كثير من علماء الحديث من أتباع التابعين في هذا الفن، ومنهم مالك، والثوري، وشعبة، فمن بعدهم. ثم نشأت مؤلفات خاصة بهذا العلم، وهذه ألفت بعلماء أهل الحديث واللغة في شرح غريب الحديث، وهي من جهة ترتيبها، على أنواع، منها: كتب شرح غريب ألفاظ الحديث المرتبة بحسب الراوي الأعلى للمتن، مثل كتب "غريب الحديث، لأبي عبيد، القاسم بن سلاَّم (ت 224هـ)، و"غريب الحديث" للإمام الحربي (ت 285هـ)، و"غريب الحديث" للخطابي (ت388هـ)". ومنها: كُتب شرح غريب ألفاظ الحديث المرتبة بحسب المتن على الطريقة المعجمية في ترتيب المواد اللغوية، وهي عامة الكتب المتأخرة (Al-Jazari, 1979) (Al-Jawzi, 2004).

ومن ضمن هذه المؤلفات كتاب "الفائق في غريب الحديث" لجار الله الزمخشري، وله ميزات فذة في هذا الفن، لأنه كان واسع الإطلاع ملمًا بقواعد اللغة العربية، وبأشعار العرب، محيطا بعلوم البلاغة والبيان، بارعًا في علم الإعراب والأدب، ومفسرًا ماهرًا لمعاني القرآن، أصوليًا، وشاعرًا، قوي الحجة والدليل، ولا يسع لأي واحد يتعمق بهذا الفن، أي غريب الحديث، إلا بأن يتحلى بالصفات المذكورة للزمخشري. وبمثل هذه الصفات فقط يعرف حقيقة علم غريب الحديث، ويذوق لذته، وهذا الكتاب "الفائق" كنز ملئ بالنكة والحكم النبوية بأدق العبارات وأجملها، وحللت هذه العبارات، واسقصيت بأقصى التحليل والاسقراء بالمهارة اللغوية والأدبية الفذة للإمام الزمخزسري، وأن من تجرد لبحث اللآلي والنكت النبوية في هذا الكتاب من شتى القضايا من الأمور الدينية والدنيوية، خاصة من فنون لغوية، ومتعة أدبية لما خاب أبدا.

فأراد الباحث أن يركز بحثه على وضع طريقة يسهل على من يريد التغوص في هذا الكتاب، وجمع كنزه، وقطف فواكهه، وعلى إبراز منهج الإمام الزمخشري فيه، فقسم هذه الدراسة على أربعة مباحث، المبحث الأول اشتمل على التعريف الموجزة بالإمام الزمخشري، وكتابه الفائق، وسبب تأليفه، والمبحث الثاني يناقش طريقة ترتيبه لهذا الكتاب، ومنهجه في اختيار ألفاظ الغريب، وتفسيرها. والمبحث الثالث يوضح منهجه في توثيق الأحاديث، ومنهجه في إيراد الشواهد والدلالات، وإثباتها. والمبحث الرابع يبرز على منهجه في استنباط الأحكام من الأحاديث وأثر مذهبه العقدي فيه. ثم اختتمت الدراسة بتقديم النتائج التي نتجت بها.

المبحث الأول: التعريف بالإمام الزمخشري، وكتابه "الفائق"

التعريف بالإمام الزمخشري وحياته

هو الإمام جار الله، أبو القاسم، محمود بن عمر بن محمد عمر الخوارزمي الزمخشري، وهو مشهور بهذا الاسم نسبة لمسقط رأسه، حيث ولد فى إحدى قرى خوارزم التابعة لجمهورية أوزبكستان، وتسمى قرية زمخشر، وذلك يوم الأربعاء الموافق 27 من رجب 467هـ، الموافق سنة 1074م (Al-Juwayni, 1119H).

ونشأ الإمام ميالا إلى أخذ العلم، وملازمة علمائه ومشائخه في الزمخشر، وتلقى الإمام الزمخشري العلم على أكابر علماء عصره، ومن أشهرهم محمد بن جرير الضبي الأصفهاني النحوي المعتزلي، والإمام الدامغاني الفقيه الحنفي، والشريف بن الشجري (Al-Juwayni, 1119H).

وقد ارتحل الإمام إلى كثير من البلدان طالبًا للعلم باختلاف صنوفه، ومنها خراسان وأصفهان وبغداد، وفيها التقى بالإمام الدامغاني الفقيه الحنفي، ثم سافر إلى مكة وجاور بها زمانًا حتى لقب بـ(جارالله)، ثم رحل عن مكة إلى موطنه خوارزم، ومكث بها (Al-Samira'i, 1971). وكان صاحب رأى في الاعتزال، أعلنه في كتبه وصرح به في مجالسه

ونادى به في رسائله، فقد كان إذا قصد أحد معارفه استأذن عليه في الدخول ويقول لمن يأخذ له الإذن (Al-Dhahabi, n.d.).

كان الإمام الزمخشري واسع الاطلاع، بارعًا في مجالات عدة، مما أضفى علية مكانة علمية عظيمة، ومنزلة بين علماء عصره، وهذا الاطلاع جعل الإمام يثري العلم بعدة مصنفات، من أهمها: تفسير الكشاف، –وهو من أشهر مؤلفاته–، والمحاجاة بالمسائل النحوية، والمفرد والمركب في العربية، وأساس البلاغة، وربيع الأبرار، والنصائح الكبار والنصائح الصغار، وشقائق النعمان في حقائق الكلام، وغيرها من المؤلفات التي حوت عناوين مختلفة بعضها في اللغة وآدابها، وبعضها في الفقه، والأخرى علم الكلام، ما يدل على سعة علم الإمام وتطلعه.

كان الإمام الزمخشري كثير الترحال لبلاد عديدة، وخاصة التي تزخر بالعلماء المشهورين، فانتقل إلى الكثير منها، ثم انتهى به المطاف إلى موطنه خوارزم بعد طول غياب.

وفي ليلة عرفة وسط النفحات الربانية فاضت روحه الطاهره إلى بارئها، وكان ذلك عام 538هـ بجرجانية عاصمة خوارزم (Al-'Abbas, 1978).

لمحة موجزة عن الكتاب وسبب تأليفه

كان الكتاب "الفائق في غريب الحديث" للإمام الزمخشري – رحمه الله – من المصنفات المهمة، وهو ثمرة جهود العلماء اللغويين الذين تناولوا هذا الموضوع منذ القرون الأولى للتأليف العربي في غريب لغة الحديث، حتى مطلع القرن السادس، إذ ظهر فيه هذا الكتاب يضم بين دفتيه فوائد جمة، ومنافع غزيرة، ورواية متقنة، وفنونا من الأدب، وأصنافا من العلم اللغوي، فهو موسوعة لغوية علمية وفقهية حفل بها القرن السادس الهجري.

إن مقدمة الكتاب "الفائق" لاتتجاوز عن صفحتين، واختصر الإمام الزمخشري كلامه بفصاحته الساحرة، وتحدّث فيها عن لطائف الفصاحة المحمدية، ومهارته الفذة في البلاغة وفنونها من الكناية، والتعريض، والاستعارة، والتمثيل، وأصناف البديع، وضروب المجاز، والافتنان في الإشباع والإيجاز، ومعينها التي نبعت من سلالة النبي ﷺ عدنان وأبنائه، وأثرها

التي تجمدت في قلوب أبناء القبائل التي عاشت مع القريش. وأثبت الإمام الزمخشري بهذا الحظ الأوفر الذي أعطي النبي ﷺ مستدلا بقوله: فضلت على الأنبياء بست أعطيت جوامع الكلم ونصرت بالرعب وأحلت لي الغنائم وجعلت لي الأرض طهورا ومسجدا وأرسلت إلى الخلق كافة وختم بي النبيون".(Muslim, 1191: 523)

وتحدث فيها بالاختصار دور العلماء القدماء واهتمامهم في كشف ما غُرب من ألفاظ الحديث النبوي، وأثنى جهودهم المتجودة في هذا الفن، واختتم مقدمته بذكر الغرض لتأليف هذا الكتاب، وهو تيسير الطريق لمن أراد التبحر في هذا الفن، ورجاء الخير والتوفيق من الله ((Al-Zamakhshari, 2005.

وقد وصف عمله هذا بقوله: وهو كتاب جليل، جم الفوائد، غزير المنافع، من أتقن ما فيه روايةً، وعلّقه بفهمه حفظًا ودرايةً، نبغ في أصناف من العلم، وبرع في فنون من الأدب" (Al-Zamakhshari, 2005). وهذا الذي ملأ كتابه من معارف وفنون ضربت أسهمها النافذة في البلاغة، والنحو، وفقه اللغة، وتاريخ الرجال، والأنساب، والأمثال، وأقوال البلغاء، والفصحاء، حتى لم يفت فيه شيء لباحث من علم العربية إلا تناوله بالشرح والتبسيط، ومثّل له بأفصح الكلام من القرآن والحديث والشعر والأمثال وسجع الكهان، وأقوال أئمة البيان العربي، مما يعسر أن نجد مثله في كتب المتقدمين.

ويعتبر بعض العلماء هذا الكتاب نسخة أخرى من نسخ غريب الحديث لابن قتيبة بسسب المنهج المتوازن الفريد بينه وبين الزمخشري، في مطابقة متون الأحاديث عندهما من حيث إيرادها الزمخشري كما أوردها ابن قتيبة، فإن ذكرها تامة ذكرها كذلك، وإن ذكرها ناقصة ذكرها كذلك، والشواهد الشعرية، والمثلية في الكتابين واحدة، كما يقول الدكتور عبد الله الجبوري: "إن هذه النصوص واحدة في الكتابين (تفسيرا ومتنا)، بل حتى الشواهد الشعرية والمثلية والقرآنية واحدة، أو تقرب كثير الواحدة من الاخرى" (Qutaybah, 1977)، فمن هنا ظهرت ميزة الكتاب "الفائق" لتشبهه لكتاب "غريب الحديث" لابن قتيبة الذي جعله بعض العلماء من أصول كتب غريب الحديث على كثرة ما ألّف فيه، وقد اعتمد عليه كثيرٌ ممن ألّف في غريب الحديث.

لقد أتم الزمخشري تأليف هذا الكتاب في أوائل شهر ربيع الآخر، الواقع في سنة ست عشر وخمسمائة، وهي السنة الرابعة (Al-Zamakhshari, 2005).

المبحث الثاني: منهج المؤلف في الكتاب

إن منهج الإمام الزمخشري في تأليفه يتمركز على جانبين رئيسين، الأول: كشف ما غرب من ألفاظ الآثار واستبهم. والثاني: بيان ما يتضمن الأثر من حكم، أو توجه، أو ما يؤدي إليه من غرض إرشادي أو تشريعي. وهذا العمل ليس بجديد بالمقارنة مع العلماء المتقدمين الذين عنوا بهذا الفن، ولكن قد نقش الإمام الزمخشري إسمه على مر التاريخ في هذا الفن بجرأته الفذة في تفسير الألفاظ الغريبة، واكتشاف معناها، وأنه غير مقلد ولا متابع، وإنما هو صاحب قرار يقول ما يراه ما لم يخالف الأصول العامة التي ثبتت بالقرآن الكريم، والسنة المطهرة. وقد جمع الإمام الزمخشري جمعا غريزا من نصوص الحديث والأثر التي تحتاج إلى كشف ما فيها من غرابة، وعقد الألفاظ، كما تحتاج إلى منحى تنظيمي دقيق يجعل التعامل معها بالسهولة في مرحلة جَمْعِها، ثم تحريرها، وضبط الإحالة عليها، ثم مرحلة الإفادة منها. ويمكن لنا أن نوضح منهجه في"الفائق" من خلال المعالم التالية:

1- منهجه في ترتيب الألفاظ وتفسيرها

قد انتهج الزمخشري في إيراد الكلمات الغريبة من الأحاديث والآثار ترتيب الحروف الهجائية من حيث أنه رتّب كل باب على الحرف الأول مع الثاني، مثلا "باب الهمزة مع الباء، والهمزة مع التاء، والهمزة مع الثاء، والهمزة مع الجيم..... إلى الهمزة مع الياء، فإن شذّ عن هذا الترتيب شيء أهمله، كاجتماع الهمزة مع الظاء، فليس هناك مفردة في العربية هذان الحرفان، فأهمل ذكرها (Al-Jazari, 1979)، وعند انتهاء الباب قال: "هذا آخر باب الهمزة" (Al-Zamakhshari, 2005) غير أنه لم يلتزم بالترتيب الهجائي فيما بعد حرفي الباب، فهو مثلا يذكر مادة (همم) قبل مادة (همز) و (وكل) قبل (وكت)، مثلا حديث "أتاه ﷺ الفضل بن العباس وعبد المطلب بن ربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب يسألانه عن أبويهما السعاية، فتواكلا الكلام فأخذ بآذانهما، وقال: أخرجا ما تصران، قال: فكلمناه فسكت،

قال: ورأينا زينب تلمع من وراء الحجاب ألاتعجل، وروى ألا تفعل".سرد الإمام هذا الحديث لكشف معنى "فتواكلا" من أصل كلمته "وكل"، ثم أورد حديثا آخر لتوضيح كلمة "وكتة"، وهو قول النبي ﷺ "والذي نفس محمد بيده لا يحلف أحد، وإن على مثل جناح البعوضة إلا كانت وكتة في قلب[1].

وكان من منهج ترتيب ألفاظ الحديث أنه يبدأ بلفظ معين ثم يتركه للفظة أخرى ثم يعود لها، فهو يذكر مثلا (جوز) ثم (جوى) ثم (جوب) ثم (جون) ثم (جوأ) ثم يعود إلى (جوز) (Al-Zamakhshari, 2005) وهكذا، وهذه الطريقة تؤدي إلى الملل والمشقة في الوصول إلى لفظ معين يريده الباحث، وقد أشار الإمام ابن الأثير إلى هذا النقص في مقدمة كتابه (Al-Jazari, 1979). ومن المناسب أن نشير هنا أن الإمام خالف في تقديم (الواو) على (الهاء) وهو ترتيب معروف أيضا عند المشتغلين في اللغة، ولاسيما أهل المغرب، وبعض المشارقة، وحاجي خليفة في الكشف مثلا: فقد انتقل من النون (نيل المرام) إلى باب الواو مباشرة (الوابل الصيب) (Khalifah, n.d.)، ثم تناول الهاء.

إن الإمام الزمخشري رغم ترتيبه في إيراد الأحاديث على حسب حروف المعجم، ولكنها غير مرتبة موضوعيا، ولم يتمسك في سردها منهجا معينا، فيذكر بعض الأحيان نص الحديث كاملاً، وبعض الأحيان مختصراً ومتجزأً. ولم يجد الباحث –بعد التحري الدقيق– هناك تعليلا واضحا لإطالة بعض الأحاديث وسردها بشكل كامل إلا كونها تحصر جملة صالحة من المفردات الغريبة التي تحتاج إلى شرح وتبسيط كما سيأتي مثاله.

[1] إن هذا الحديث –حسب اطلاع الباحث– لم يأت بلفظ "وكتة" في الكتب الحديثية المعتمدة، ولكن روي بهذا المعنى بلفظ "نكتة"، وهو الذي أخرجه الترمذي في سننه، وأحمد في مسنده، "عن عبد الله بن أنيس الجهني قال: قال رسول الله ﷺ إن من أكبر الكبائر الشرك بالله، وعقوق الوالدين، واليمين الغموس، وما حلف حالف بالله يمين، صبر، فادخل فيها مثل جناح بعوضة إلا جعلت نكتة في قلبه إلى يوم القيامة". انظر: كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ، باب من سورة "النساء"، ج5، ص236، رقم الحديث: 3020. قال أبو عيسى و أبو أمامة الأنصاري هو ابن ثعلبة ولا نعرف اسمه، وقد روى عن النبي ﷺ أحاديث وهذا حديث حسن غريب (Khalifah, n.d.). وانظر باب الواو مع الكاف، ج4، ص207 (Al-Zamakhshari, 2005).

وهناك إمكان لسرد المؤلف الحديث كاملا، وإن كان طويلا لأهمية متنه، وتوفره على أحداث خطيرة في حياة الأمة، كما سرد حديث الهجرة، حين خرج الرسول ﷺ ورفيقه أبو بكر τ، وما جرى لهما في طريقهما في اختبائهما في الغار، وخروجهما وزيارتهما خيمة أم معبد، وما لقيا من الرزق فيها (Al-Zamakhshari, 2005)، فقد استغرق لحديث مع تفسير مفرداته ست صفحات، أورد خلالهما قيل من الشعر، وسرد أقوالا وأمثالا عربية، وكأن الفائق كتاب حديث كاملا، لا كتاب غريب ألفاظ على أن هذا المنهج لم يكن مطردا في كل ما أورد من حديث أو أثر، فقد يأتي النص مقتطعا من حديث طويل، وقد يشير إلى أصله، ويكتفي بعبارة ذات حكم مستقل من حديث طويل.

ويورد بعض الأحيان كامل الحديث بلا الباعث المذكور، كحديث "كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه كما تناتج الإبل من بهيمة جمعاء، هل تحس من جدعاء؟ قالوا: يا رسول الله، أفرأيت من يموت وهو صغير قال: الله أعلم بما كانوا عاملين (Dawud, 2004: 4714).

إن منهج الإمام في سرد الحديث متجزأ، يمكن لنا أن نقسمه إلى قسمين: أحدهما التجزأ في أصل الباب. والثاني: التجزأ في خلال الشرح.

أما النوع الأول: فهو كثير يضع الجزء من الحديث في أول المادة، ويكون هذا الجزء متضمنا اللفظ الذي يريد تفسيره، ومن هذا النوع قول النبي ﷺ: "نهى عن بيع حبل الحبلة" (Al-Bukhari, 1987: 2143).

وقوله ﷺ "سيد الإدام في الدنيا والآخرة اللحم وسيد الشراب في الدنيا والآخرة الماء وسيد الرياحين في الدنيا والآخرة الفاغية" (Al-Tabrani, 1415H: 7477).

وأما النوع الثاني من الأحاديث المتجزئة، فهو الحديث الذي يورده دعما لحديث، أو استطرادا في تفسير مفردات ذات صلة بالحديث المشروح، ومن هذا النوع حديث عدي بن حاتم في قول الله تعالى: (حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الاسود من الفجر) (سورة البقرة:

187)، قال عدي: "أخذت عقالا أسود، وعقالا أبيض، فوضعتهما تحت وسادي، فنظرت فلم أتبين، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال: إن وسادك- إذن- لطويل عريض، إنما هو الليل والنهار". ويلخصه ما جاء في حديث آخر: قلت يا رسول الله، ما الخيط الأبيض من الخيط الأسود، قال: ...." (Al-Zamakhshari, 2005) (Al-Bukhari, 1987: 4509). وربما أكد معنى الحديث المسوق بالباب بأكثر من حديث مجتزأ كما فعل في مادة (جدف) فقد سرد ثلاث مقطوعات قصيرة من أحاديث يؤكد بعضها بعضا، وبألفاظ مختلفة، كرر خلالها (التجديف، مجدوف، لا تجدفوا، التجديف أيضا) (Al-Zamakhshari, 2005). وقد يكتفي بذكر لفظ أو لفظين من الحديث المؤكد، فيشير إليه، إذا كان قد مر به فيما تقدم به من الألفاظ، أو يشير إلى المادة المفسرة في الحديث السابق، ومن هاتين الصورتين حديث عبد الله بن مسعود τ "أُتي بسكران، فقال: تلتِلوه ومزمِزوه": أراد حركوه وأوقعوه (Al-Zamakhshari, 2005).

ومن الجدير بالإشارة إلى منهجه في تكرار الألفاظ في مواضع من الباب، مثلا وري-ورع-وري-ورك-ورد-ورع -وره-ورك-ورد-ورع-ورق- (Al-Zamakhshari, 2005). فيلاحظ تكرار (وري) مرتين، و(ورك) مرتين، و(ورع) ثلاث مرات، و (ورد) مرتين، ولم يأت في حالة الإفراد إلا: (وره) و (ورق). وقد اضطره هذا المنهج إلى أن يتبع كل فصل من فصول الكتاب بإشارة إلى ما يرد من مواد اللغة في مواطن أخرى من الكتاب ليتمم به ما كان ينبغي له أن يفسر مع موارد الباب نفسه.

2- منهجه في تفسير الألفاظ الغريبة من الأحاديث والآثار

إن منهج الإمام الزمخشري في تفسير الألفاظ الغريبة من الأحاديث والآثار أليق بالإشارة إلى النقاط التالية:

- من ميزات منهج الإمام الزمخشري شرح اللفظة الغريبة التي تدخل في المادة اللغوية التي عقدها، والألفاظ الغريبة التي تليها، فإن ورد غريبان أو أكثر في الحديث نفسه يشرحها، ويكشف معناها، ولا يراعي فيها الترتيب.

لأنَّ الحديث الواحد قد يتضمن أكثر من مفردة غريبة، هو يَسْرد النص وفق الترتيب الهجائي لأول لفظٍ غريب، ثم يَذْكر اللفظ الغريب الثاني في الموضع نفسه. إنَّ اختيار الإمام لهذا المنهج الدقيق يجعله يتجاوز مظاهر العسر التي تكتنف الطرق الأخرى، فطريقة المسانيد يصعب معها الاهتداء إلى الموضع المطلوب، ولا سيما إن جهل المراجِعُ اسم صاحب المسند، ولو عرفه لتعب في الوصول إليه، من خلال عشرات الأحاديث التي يرويها ذلك الصحابي، وإن كان لدينا فهارس حديثة كاشفة، احتاج المراجِعُ إلى الوقوف على أحاديث كل مادة ليصل إلى مبتغاه من حديث معيّن، وفي ذلك هَدْرٌ كبير للوقت والجهد.

ومثال شرحه لحديث أبي موسى الأشعري τ قال: لأنس بن مالك: ما ثبر الناس؟ ما بطّأ بهم؟ فقال أنس: الدنيا وشهواتها. فقد أورد من نص الحديث لفظة "ثبر" لأنها هي المَعْنِيَّة في ترتيب المواد وفق حروف المعاجم، تحت باب "الثاء مع الباب" فيشرحها بقوله:"أي: ثبره الله ثبرا وثبورا، إذا أهلكه، وقطع دابره". ثم أخذ يشرح اللفظ الغريب التالي في هذا الحديث، وهو لفظ "بطّأ"، حتى اعتبر اعتنائه بهذا اللفظ أكثر من اللفظ الذي في ترتيب المواد (Al-Zamakhshari, 2005).

ولا يكتفي الإمام على تفسير مفردات حديث الباب، وإنما يتناول مفرداته، ومفردات سائر الأحاديث التي يسردها لتقوية حكم الحديث، أو بيان معاني مفرداته وتأكيد أغراضها، ويضم إليه أيضا ألفاظ الروايات الأخرى للحديث نفسه، وبذلك يتسع السرد وتطول النصوص وتتعدد الدلالات، وتختلف المفردات، ومن ذلك قوله في خبر دخول سيابة بن عاصم السلمي على الحجاجن وسؤاله: من أي البلاد أنت؟ فأجابه – في خبر طويل- "فلبّدت الدماث، ودحضت التلاع، وملأت الحفر، وجئتك في ماء بحر الضبع، ويستخرجها من وجارها فقاءت الأرض بعد الريّ، وامتلأت الإخاذ، وأفعمت الأودية". أراد بالدماث: السهول، والعزاز: الأرض الصلبة، ودحضت التلاع: أي صيرتها المزالق، الإخاذ: المصانع، أفعمت: ملأت... الخ (Al-Zamakhshari, 2005). فجمع بين مفردات الروايتين ولم يترك منها مفردة لم يفسرها.

- ومن خصائص منهج الإمام إيراد مادة لغوية يتعلق باللفظ المتعين، وبسط الكلام في تفصيله، وتعوّده كثيراً بذكر الأصل اللغوي للكلمة، ودلالة ذلك الأصل، موضحا ذلك بذكر الاشتقاق والمصادر، ويورد لتأييد ذلك المعنى بالشواهد المناسبة من كلام الله عز وجل، وكلام العرب، مثلاً وخطباً وشعراً.

مثل شرحه لحديث " يخرج قوم من المدينة إلى العراق والشام يبسّون المدينة، والمدينة خير لهم لو كانو يعلمون". البسُّ: السوق، والطرد، يقال: بسّ القوم عنك، أي: اطردهم، ومنه بس عليه عقاربه: إذا بث نمائمه. قال أبو النجم: "وأنبس حيّات الكثيب الأهيل". وبهذا المعنى فسر قوله تعالى {وبست الجبال بسا}. (سورة الواقعة، الآية: 5). والمعنى يسوقون بهائمهم سائرين، ولا محل له من الإعراب، لأنه بدل من (يخرج قوم)، ولا يجوز أن يقال: هو في محل النصب على الحال، لأن الحال لا ينتصب عن النكرة، ويجوز أن يكون صفة لقوم، فيحكم على موضعه بالرفع (Al-Zamakhshari, 2005). بعدما وضح معنى اللفظ الغريب، وكيفية استعمالات العرب مستدلا بالشعر، والآية القرآنية يثبت معناه المناسب حسب القواعد النحوية.

- ومن خصائص منهج الإمام الزمخشري إبراز معاني الكلم الغريبة حسب السياق والدلالات اللغوية، لأن دلالات الكلمات من النصوص الحديثية، والآثار تختلف من موضع لآخر، فليست جميعها واحدة الدلالة، بل، أن دلالاتها تتنوع بتنوع السياقات والأحوال والهيآت، كماتختلف باختلاف الصيغ والأبنية، ولها أثر كبير في تحديد المعنى المراد، وإثبات الأحكام.

مثال اختلاف المعنى في نفس اللفظ، وتفسيره حسب السياق: "حديث موادعته ﷺ أهل مكة وإسلام أبي سفيان، أن أباسفيان، رأى المسلمين لما قام رسول الله ﷺ إلى الصلاة، فلما كبر كبروا، ثم سجد فسجدوا، فقال للعباس، يا أبا الفضل، ما رأيت كاليوم قط طاعة قوم، ولا فارس الأكارم، ولا الروم ذات القرون" (Al-Tahawi, 1994: 5445).

يشرح الإمام في هذا الحديث كلمة "القرون": لها ثلاث معان: أحدها أنها الشعور، وهم أصحاب الجمم الطويلة. والثاني: أنها الحصون. والثالث: ما في قوله – عليه السلام – فارس نطحة أو نطحتين، ثم لا فارس بعدها أبدا، والروم ذات القرون، كما هلك قرن خلف مكانه قرن، أهل صخر وبحر، هيهات آخرالدهر.

هنا وضح الإمام كل المعاني لكلمة "القرن" لمعرفة معناه الحقيقي حسب السياق (Al-Zamakhshari, 2005).

ومثال اختلاف المعنى حسب الصيغ والأبنية: فمادة (كفر) –مثلا– وردت مفرداتها المشتقة على طول المواد الحديثية بالصور الآتية: (كُفُري): قشر الطلع (Al-Zamakhshari, 2005) و(يكفّره اليمين): أي: يكفر قوله ونذره (Al-Zamakhshari, 2005). و (كافر) وهو ضد المسلم (Al-Zamakhshari, 2005). وجائت المفردات: (كفرة) و (كوافر) و (تُكفّر) (كفارا) (اكفر) (تكفرونهم) بمعنى الكفر والخروج عن الإسلام. و(تُكَفرُ للسان: أي: تتواضع وتخضع، من تكفير الذمي. و(الكَفْر): القرية، (كفرتوثي) و (كفر طاب) و (كفر تعقاب). و(الكفور): القبور. و (كفرانكِ) أي: اكفر بكِ، ولا أسبحك (Al-Zamakhshari, 2005).

فهذا التلوّن في الدلالات سببه، نوع الصيغة، وما يتطلبه السياق من الحديث، غير أن أصل الدلالة، هو التغطية والإلباس. وكان الزمخشري دقيقا في توضيح هذه الدلالة، وما يتعلق بها من تغييرات في مواضع الاستعمال حقيقة أو مجازا. وينبه الإمام الفرق بين اللفظين الذين يختلفان في روايتين، ولكن دلالتي اللفظين واحدة، ومن هذا القبيل ما جاء في الحديث: (فجاض الناس جيضة) قال: وروي: (فحاص الناس حيصة). قال: ومعنى الكلمتين واحد، وهو الحيدودة حذرا (Al-Zamakhshari, 2005).

- ومن ميزات منهج الإمام تفسير الغرائب بالأحاديث النبوية.

مثاله: تفسير الإمام للفظ "أُفنّد" في حديث النبي ﷺ "قال له رجل: إني أريد أن أفند فرسا، فقال: عليك به كميتا، أو أدهم أقرح أرثم محجلا، طلق اليمنى :(Shaybah, 2007

(33239. وساق الإمام لتفسير ذلك اللفظ حديثين: الأول: "قال النبي ﷺ أتزعمون أني من آخركم وفاة، ألا إني من أولكم وفاة تتبعونني أفنادا يهلك بعضكم بعضا (Hibban, 1993: 6646).

الثاني: "قال النبي ﷺ: أسرع الناس بي لحوقا قومي تستحيلهم المنايا، وتتنافس عليهم أمتهم، ويعيش الناس بعدهم أفنادا[2].

3- منهج الإمام في توثيق الأحاديث

تمسك الإمام الزمخشري في "الفائق" منهجا فريدا في توثيق الأحاديث، وإثبات سلامتها وخلوها من العلل التي تختفي في المتن بأسباب متنوعة، ولا يطلع عليها إلا جهابذة من العلماء، ولم يهتم الإمام كثيرا في التوثيق بجانب الإسناد، ولكنه يتعمق في استقصاء المفردات الغريبة، وإبراز الشكوك في المتن، ويفنن في إظهار وجوه معانيها بسرد الدلالات والشواهد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وأقوال العرب الأدباء.

إن الإمام الزمخشري لم يلتزم ضوابط التوثق في إيراد الأحاديث، ولم يفرق بين المرفوع والموقوف، وأقوال التابعين، فهنا يحتاج المراجع إلى التنبه بين الأحاديث الصحيحة والضعيفة، وبين الأحاديث وغيرها من الأقوال. واكتفى الإمام بإيراد متن الحديث فقط بلا السند غالبا، وتارة يذكر إسم الصحابي الذي روى الحديث من النبي ﷺ، وتارة لا يذكر إسمه، ويخبر مباشرة متن الحديث. ولكن الإمام يتعمق في إثبات معنى المفردات الغريبة عليه حتى يورد سند الحديث كاملا، ويبسط دلائله في صفحات كثيرة فيما يسرد من شواهد وأمثلة، وفي حديث عمر τ "وقع عليه شيخ توسن جارية، فجلده، وهم يجلدها فشهدوا أنها مقهورة، فتركها، ولم يجلدها" توسنها: أي تغشاها، وهي وسنى -على القسر (Al-Zamakhshari, 2005).

[2] حسب اطلاع الباحث، أورد الإمام هذا الحدديث رواية بالمعنى، من حديث طويل أخرجه ابن حبان في **صحيحه**، وهو: حدثني ضمرة بن حبيب قال: سمعت سلمة بن نفيل السكوني، قال: كنا جلوسا عند النبي ﷺ وهو يوحى إليه، فقال: إني غير لابث فيكم، ولستم لابثين بعدي إلا قليلا ، وستأتوني أفنادا ، يفني بعضكم بعضا ، وبين يدي الساعة موتان شديد ، وبعده سنوات الزلازل (Hibban, 1993: 6646).

هذا هو كل الحديث، مع تفسير مفردة (توسن)، وكان هذا كافيا لو انتقل المؤلف إلى غيره من الأحاديث، ولكنه رأى أن يتم قصة هذه المرأة، والحالة التي اعتدى فيها ذلك الشيخ عليها، فروى الحادثة بسلسلة إسناد طويلة بدأها من شيخه الأستاذ الأمين، أبي الحسن علي ابن الحسين بردك، قال: "أخبرنا الشيخ الزاهد الحافظ أبو سعيد إسماعيل بن علي بن الحسين السمان قال: حدثنا أبوبكر أحمد بن محمد بن الحسين بن أحمد بن يحيى بن إياس البزاز، ويعرف بجميلة بن إياس –بدير عاقول– بقرائتي عليه، قال....) وتنتهي هذه السلسلة الطويلة بأبي موسى قال: "أتيت – وأنا باليمن– بامرأة، فسألتها، فقالت.." ويسرد رواية المرأة نفسها، ثم كتاب أبي موسى إلى عمر بشأنها، ثم قضاء عمر τكما سبقت الإشارة (Al-Zamakhshari, 2005).

هذا التوثيق الذي يرسمه أبو القاسم الزمخشري في هذا الحديث، وفي غيره من الأحاديث يدل على حرصه على الأمانة والتثبت فيما يروي من أحاديث وآثار في (فائقه) ولو لم يلتزم الإمام في التمييز بين المرفوع والموقوف وأقوال التابعين، ولو لم يهتم بسرد السند، إلا أن منهجه في استقصاء الدلالات، وكيفية التتبع عن الصحيح والشك في المتن أو اللفظ فذة تدل على تفوق فائقه، ومنها: استقصاء الدلالات وتقليب وجوه المعاني.

ظاهرة الاستقصاء في سرد الأمثلة، وإعطاء التفسيرات من أجمل الظواهر المنهجية في الفائق، وهي تعطينا مثلا واضحا عن قدرة المؤلف وسعة علمه اللغوي، وليس الاستقصاء مقصورا على التفسير ووجوه المعاني، والأمثلة والنظائر من المفردات والتراكيب، بل يضاف إلى ذلك كله (الاستقصاء) في سرد الروايات، واختلافها، والتعليق عليها، أو إضافة وجوه أخرى يراها هو، ففي الحديث: "أرن واعجل" (Al-Zamakhshari, 2005) ، وقف على لفظ (أرنِ) فسرد كل ما قيل فيه من روايات، وألحق بكل رواية ما يتعلق بها من معنى، قال: "يجوز أن يكون: أران تعدية لران بالهمزة، كما عديت بالباء في (ران به) وقيل: أرِن، من: أرِن: إذا نشط وخف، وقيل: أُرْنُ من الرنوّ، وقيل: أرز، أي شد يدك على المحز، ولو قيل: أرِنّ، أي اذبحنّ بالإرار وهو طررة، أي: حجر تحدد يؤربها الراعي ثغر الناقة –كان– أيضا– وجها (Al-Zamakhshari, 2005).

ومن مظاهر توثيق الإمام أخذ التورع في كشف المعاني وإظهارها، ولقد ذكر الزمخشري باسمه ما يزيد على مئة وثمانين موضعا، وأكثرها نقل بأمانة من غير تغيير أو نقص، نحو قوله: قال الزمخشري: "الطرف لا يثنى ولا يجمع، لأنه مصدر، لو جمع فلم يسمع جمعه أطراف ولا أكاد أشك أنه تصحيف، والصواب: (غض البصر)، أى: يغضضن من أبصارهن مطرقات راميات بأبصارهن إلى الأرض" (Al-Zamakhshari, 2005)، والعبارة بتمامها في الفائق. ومن ذلك قوله: في صفة الرسول ﷺ "كان منخوض الكعبين، الرواية: منهوس بالسين المهملة، قال الزمخشري: (وروي: منهوش ومبخوض، والثلاثة في معنى المعروق) (Al-Zamakhshari, 2005).

4- منهج الإمام في إبراز الشكوك في المتن

إن منهج إبراز الشك في اللفظ ليس مقصودا لذاته، وإنما تفرضه الحالة التي يرد اللفظ فيها خلال النص، فقد يظهر المعنى خلاف ما ورد الحديث من أجله، وقد تكون غرابة اللفظ مدعاة للشك، وقد يكون الحديث مسموعا ومحفوظا بلفظ، يعارض رواية الأخرى، وهذه صور من الحالات التي تجعل الزمخشري شاكا في رواية لفظ الحديث، مثل رواية معاوية τ (إنها ضميلة-، وقيل: هي الزمنة)، فوقف الزمخشر بين رأيين، هما: إما أن تكون اللفظة: (ضمينة) بالضاد والنون، وفي ذلك يقول: (فإن صحت الرواية بالضاد، فاللام بدل من النون) وشبه ذلك بقولهم: (أصيلان: أصيلال) بإبدال النون لاما. وإما ان تكون الرواية بالضاد، فتكون المفردة: (ضميلة) وعبر عن هذا بقوله: (وإلا فهي ضميلة –بالصاد-). والصميلة: الشديدة (Al-Zamakhshari, 2005).

ويرفض الزمخشري رواية الحديث بلفظ معين ويعدها من التصحيف، إذا ثبت له سند أو جهة لروايتها، ويتمسك بما يراه صحيحا متنا ومضمونا، وقد حدث له أن اصطدم بأحدهم يروي حديث علي τ وفيه لفظ (الضراح) – يرويه بالصاد-، وكان الزمخشري يومئذ حدثا صغيرا، فلم يقبل روايته، وأكد ما كان يراه بالدليل اللغوي الصحيح، قال: (الضراح)، (

وفي رواية أخرى: (الضراع، (وفيه لغتان: الضراح، والضريح... وهو من المضارحة بمعنى المعارضة والمقابلة... ومن رواه – بالصاد غير المعجمة- يعني الصراح، والصريح – فقد صحف، وسألني عنه بعض المشيخة المتعاطين تفسير القرآن، وأنا حدث، فطفق يكرر، ويزعم أنه – بالصاد- حتى رويت له بيت المعري.

وقد بلغ الضراح وساكنيه نثاك وزار من سكن الضريحا.

ورأيته كيف قصد الجمع بين (الضراح والضريح) ليجنس فسكن ذلك من جماحه (Al-Zamakhshari, 2005).

ولما كان الحديث مظنة للسهو، والخطأ، والنسيان، وربما يداخله الوضع أو يكون ضعيفا، يرد عليه الضعف من متنه أو سلسلة إسناده، لذلك نجد الزمخشري متنوعا في عناياته بلفظ الحديث ومتنه، وصحة روايته، فمن اختلاف لفظ الحديث بسبب غلط الناقل، ما رواه عن الإمام علي – رضي الله عنه-: (لأنفضنهم نفض القُصّاب التِراب الوَذِمة) (al-Daruqutni, 1985: 346). فبعد أن فسر معناه قال: (وقيل: هذا من غلط الناقل، وأنه مقلوب، والصواب: الوذام التربة، وفسر: (الوذام) بأنها جمع (وذمة) وهي الحزة من الكرش أو الكبد والكرش نفسها (Al-Zamakhshari, 2005).

يبين الزمخشري غالبا رأيه في متن النص الأثري، وصحة روايته أو معناه، وغالبا ما يعطي رأيه هو دون أن يعتمد على قول لغوي، وقليلا ما ينقل مثل قول أبي سعيد الضرير (195هـ)، مثل ما يفسر عن اللام المبدلة من النون بقوله: "فإما أن تكون اللام – في كاهل- مبدلة من النون، أو أخطأ سمع السامع فظن أنه باللام" (Muslim, 2006: 102) (Al-Zamakhshari, 2005).

5- منهج الإمام في سرد الدلالات والشواهد

إن الشواهد والأمثلة في الفائق لها ميزة فذة، ومتعددة الجوانب من تأكيد دلالة لفظ، أو قاعدة لغوية، أو تركيب عربي ورد في الحديث، أو ظاهرة تتميز بها العربية من سائر اللغات،

وهذه الشواهد تتفاوت على حسب أهمية موضوع الاستشهاد، ومن الطبيعي أن يكون الحديث عضدا للحديث، ولذلك كانت الشواهد الحديثية أكثر النصوص المستشهد بها ظهورا، يليها الشعر.

فوفق اطلاع الباحث ألفا وأربعمائة وخمسة وأربعين شاهدا شعريا بين الرجز والقريض، نسب معظمها إلى قائلها، وأهمل سائرها بلا نسبة، وهو ما يمثل مقدار الثلث، أما الشواهد من الآيات القرآنية فقد تجاوزت المئاتين والسبعين شاهدا قرآنيا تكرر بعضها- وهو قليل جدا كما تكرر في قوله – تعالى-: (عتي حين) فقد أوردها في قراءة عبد الله بن مسعود، ورد عمر بأن يقرئ الناس بلغة قريش لنزول القرآن بها. أما الأمثال فقد ورد منها مائة وخمسة عشر مثلا، وهي نسبة لا بأس بها في كتاب يعني بلغة الحديث وغريبها. وتأتي أقوال الفصحاء والبلغاء في الموقع الأخير من شواهد الزمخشري، وهي منبثة في تضاعيف الكتاب تعضيدا لظاهرة، أو تأكيدا لدلالة لفظ.

وأما الشاهد القرآني: إن نسبة ما ورد من القرآن الكريم في شواهد الزمخشري أقل من الحديث والشعر، ولغة القرآن لغة منتقادة متخيرة، لم تتعدد فيها اللهجات تتعدد لغة الحديث، ومن هنا كانت شواهد القرآن الكريم على لغة الحديث قليلة نسبيا بالقياس إلى لغة الشعر والأمثال، وأقوال الفصحاء والبلغاء، لأن هذه الشواهد الأخيرة للهجات المختلفة، وللضرائر، وللتصرف الفردي القائم على أساس القدرات والاستعدادات التي يتمتع بها الممارسون للحديث باللغة العربية.

ومع ذلك حاول الزمخشري الاستفادة من الاعتماد على لغة القرآن تعضيدا للحديث، وتقوية لمعنى مفرداته، وربما عضد لغة القرآن بلغة الحديث. مثلما ساق قول الله تعالى: ﴿جعلوا القرآن عضين﴾ (سورة الحجر، الآية: 91) في تفسير لفظ "عضه" من حديث الرسول ﷺ، "ألا أنبئكم ما العضة؟ قالوا: بلى يارسول الله، قال: هي النميمة" (Al-Zamakhshari, 2005).

والشاهد الحديثي: يتناول الزمخشري الحديث شاهدا عندما يحتاج إلى تأكيد معنى دون لفظ، ومن ذلك تأكيده لمعنى الحديث: "ملعون مَن غَيّر تُخُوم الأرض" (Al-Zamakhshari, 2005) (Ahmad, 2009) وتعليق شعيب الأرناؤوط: إسناده قوي على شرط مسلم. فقد أراد هنا أن يؤكد معنى الظلم الذي يوقعه بعض الناس بالاستيلاء على أرض غيره، فتقع عليه اللعنة، فقال: "من ظلم جاره شبرا من الأرض طوقه الله يوم القيامة من سبعين أرضين" (Al-Zamakhshari, 2005). قد أخبر الإمام السيوطي هذا الحديث من الأحاديث الموضوعة، وهذا طرف صغير من الحديث الطويل حتى قال الإمام ابن حجر: هذا الحديث بطوله موضوع (Al-Suyuti, n.d.).

أما الاستشهاد باللفظ لأجل اللفظ، فكقوله ﷺ من حديث زيد بن ثابت τ: (ما عندنا شيء ولكن أتبع علينا) ففسر: (أتبع) ب (أجل)، ثم قال: ومنه الحديث: (إذا أُتبع أحدُكم على مليء فليتبع) (Al-Bukhari, 1987: 2287)، أي: إذا أحيل فليحتل (Al-Zamakhshari, 2005).

قد انتهج الزمخشري في فائقه نهجا يسهل على القارئ أن يعرف به حديث رسول الله ﷺ من الآثار والأقوال للصحابة والتابعين، وهو نهج سليم يدل على الدقة والتحري في إعطاء كل ذي حق حقه، ووضع الشيء في مكانه الصحيح.

فيمكن لنا أن نقف على ما أورد الزمخشري من النصوص يجد أنها موزعة بين:

1- حديث الرسول ﷺ
2- أقوال الصحابة
3- أقوال التابعين – رحمهم الله-
4- أقوال الأئمة الحسن والحسين وزين العابدين، وأحفادهم
5- أقوال من عاصر الرسالة ممن أسلم أو لم يسلم، كمسيلمة الكذاب.
6- وأقوال المتأخرين ممن عاصر التابعين، كعيسى بن عمرو النحوي المتوفى سنة: (149هـ). وسنعطي أمثلة لهؤلاء في عرض البحث.

ولقد ميز الزمخشري بين هذه الشخصيات بما يقرن بها من الدعاء. فإذا قال: قوله (صلى الله عليه وسلم) علم أنه حديث رسول الله ﷺ.

وإذا قال: قوله – رضي الله عنه– أو صرح باسمه، عرف أنه صحابي... وإذا ذكر الإمام –عليا– أو أبناه أو أحفاده، قرنهم ب (عليه السلام). وإذا ذكر التابعين، قرنهم بالرحمة من الله، فإذا قال: قال الحسن رحمه الله عرف أنه تابعي. غير أن الزمخشري قد يخل بهذا المنهج في مواضع نادرة في ضمن تفسيراته، فقد ذكر للإمام علي ب – رضي الله عنه– (Al-Zamakhshari, 2005).

وحين ذكر فاطمة –ع– قال: (الزهراء البتول، عليها وعلى أبيها، وبعلها أفضل الصلوات وأشرف التسليمات..) (Al-Zamakhshari, 2005).

حسب رأي الباحث أن دعاءه لعلي وأبنائه وزوجته ب – عليهم السلام جميعا– بسبب شدة حبه لآل بيت النبي الأكرمين. وهم أحق بالتجلة والتكريم، رضي الله عنهم جميعا.

ومن الجدير بالإشارة أن الإمام الزمخشري ذكر جملة النصوص التي لم تكن من الأحاديث، ولكنه قيلت في رسول الله، أو في وقته على ألسنة أناس لم يكونوا قد أسلموا، أو أسلموا ثم ارتدوا، ومن ذلك قول أبي لهب: (لهَدّ ما سحركم صاحبكم) (Al-Zamakhshari, 2005)، وفسر (لهدّ) بنِعْم. ومن الأمثلة على هذا النمط من النصوص ما روي من كلام المسيلمة الكذاب، فقد نقل حديث إعراسه بسجاح التميمة، قال: (قال مسيلمة الكذاب: عَثِّنُوا لها). أي: نحروا من العثان، وهو الدخان الذي لا لهب له، والضمير لسجاح المتنبئة، قال ذلك حين أراد الإعراس بها (Al-Zamakhshari, 2005).

فيمكن لنا أن نقول بأن الإمام الزمخشري يريد أن يحصر الحديث بين جيلين، جيل معاصر للرسالة المحمدية، واللغة يومئذ لا تزال على فصاحتها، وقوة فاعليتها، وهي تعيش في موطنها الأم – جزيرة العرب–، والمتكلمون بها عرب أقحاح لم يشب كلامهم شيء من

انضعاف أو الغرابة، فضلا عن لسان صاحب الرسالة ذي الفصاحة المعجزة والبيان الناصع. وجيل عاش على أعقاب لصحابة، وأخذ عنهم ونقل كلامهم الذي سمعوه عن رسول الأمة ﷺ ولم تفسد سلائقهم، ولا تغيرت ألسنتهم، فكانوا حلقة الوصل بين عهد متميز بالفصاحة والبيان، وعهد يوشك أن ينحدر اللسان فيه إلى اللحن والضعف، وهو عهد أواخر أيام الأمويين وأول أيام العباسيين.

7- منهج الإمام في استنباط الأحكام من الأحاديث، والأثر المذهبي

إن من أهم الغايات لدراسة السنة والتحري في إثبات سلامتها، والتعمق في استقصاء معانيها من الألفاظ الغريبة معرفة توجيهاتها، ودلالاتها، واستنباط الأحكام الشرعية، كما يذكر من ضوابط التعامل مع غريب الحديث إن الاشتغال بفقه الحديث، والوقوف على الدلالات الشرعية والأحكام التي يثمرها الحديث النبوي من أهم الضوابط للتعامل مع غريب الحديث (Al-Manas, 2013). فعلى هذا، حاول الإمام الزمخشري في معظم الروايات أن يستخرج الآراء الفقهية، ومواقف الأئمة فيها، ومذاهبهم مثلما استقصي المؤلف أمثلته وشواهده ورواياته في تفسير المفردات، ولم يفت للإمام إلى ترك بعض الآثار والتلميحات المذهبية الاعتزالية بشكل دقيقة.

من أمثلة منهج الإمام الزمخشري على التفصيل في مذاهب الفقهاء وبيان جهات نظرهم مثل ما استنبط من حديث عمر τ ذكر (الربّى) وهي الناقة التي في البيت لأجل لبنها، أو هي التي تكون حديثة النتاج، هل عليها صدقة، قال: (هذا يعضد مذهب زفر ومالك – رحمهما الله تعالى–، لأنهما موجبان في الحملان ما في الكبار. وعند أبي يوسف والشافعي – رحمهما الله–، فيها واحدة منها، أما أبو حنيفة ومحمد – رحمهما الله– فلا يريان فيهما شيئا) (Al-Zamakhshari, 2005). غير أنه في مواضع كثيرة من الكتاب يكتفي بالحكم العام، أو بإعطاء رأيه الذي يوافق غالبا الأحناف، ومن ذلك قوله في (العمرى والرقبى) (واعلم أن من ملك في حياته، فهو لورثته من بعده) (Al-Zamakhshari, 2005). أو ينسبه إلى الأصحاب، فيقول: (وحمل أصحابنا النصح على الصب، وبالصب يطهر عندهم) (Al-Zamakhshari, 2005).

يعرض الإمام الزمخشري لمذاهب علماء الحنفية الذين يعنيهم بقوله أحيانا بلفظ: (أصحابنا)، من نحو قوله: (ألغى طلاق المكروه): أي: أبطله، وجعله لغوا، وهذا مما يعضد مذهب الشافعي – رحمه الله– وعند أصحابنا يقع طلاقه، واعتمدو حديث صفوا بن عمرو الطائي وامرئته) (Al-Zamakhshari, 2005).

وإن من منهج الزمخشري في استنباط الأحكام أن يورد مع الحديث الحجة تفسيرات لغوية، وبيان مناسبة قول الحديث، وتعضيده بأحاديث أخرى حتى يتبين من خلال ذلك الحكم الشرعي المترتب على النصوص المروية، ومن ذلك حديث القصر في الصلاة، ومسافة الأرض التي يجوز فيها ذلك، فقد ذكر حديث بن عباس حين سأله أبي خيرة: (أقصر الصلاة إلى الأبُلّه). قال له ابن عباس (تذهب وترجع من يومك) قال أبو خيرة (نعم) قال ابن عباس: (لا إلا يوما متاحا). فقال الزمخشري مفسرا (أي: لا تقصر إلا مسيرة يوم طويل، وكأنه أراد اليوم مع ليلته، وهذه سفرة مالك. وعن الشافعي: أربعة برد، والبريد أربعة فراسخ، ونحوه ما رووا عن ابن عباس أنه قال: يا أهل مكة لا تقصروا في أدنى من أربعة برد من مكة إلى عسفان. وعند السفر تقدر بثلاثة أيام ولياليها. وعن أبي حنيفة – رحمه الله–: يومان، وأكثر اليوم الثالث في رواية حسن ابن زياد اللؤلؤي– رحمه الله– (Al-Zamakhshari, 2005).

فهنا واضح منهجه الدقيق وحرصه على الوقوف بشكل دقيق على الأمور الفقهية وأحكام المعاملات والعبادات والسلوك، فبينها جميعا ونسب كل قول أو رأي إلى صاحبه، ولم ينس أن يعطي رأيه في بعضها، ولذلك جاء كتابه مظنة لأمور الشرع مبينة واضحة، ومسندة إلى ما يقويها ويؤكدها من الأحاديث والآثار.

حسب اطلاع الباحث على أن الإمام لم يعتمد غالبا على آراء مذهبه الاعتزالي في تفسير ألفاظ الحديث، وإظهار معناه، واستنباط أحكامه، لأنه جمع أغلب اهتمامه في هذا الكتاب في اللغة والأدب، وإظهار بلاغة النبي ﷺ، ولكن لم يفت في كتاباته بعض التلميحات التي تثبت آراء المعتزلة، مثل ما فسر في هذا الحديث: "أبو بكر τ ذكر المسلمين،

فقال: فمن ظلم منهم أحداً فقد أَخْفَر الله، ومن ولى من أَمْرِ الناس شيئا فلم يعُطْهِم كتاب الله فعليه بُهْلَة الله، ومن صلّى الصبح فهو في خُفْرَة الله.

خفر خفرتُ الرجل: أجَرْتُه وحفِظْت عهْده وأخفرته: نَقَضْتُ عهده، الهمزة فيه مثلها في أشكَيْتُه، كأن المعنى: أزلت خُفْرته. كتاب الله: أي: مَرَاسِمه في العدل والإنصاف" (Al-Zamakhshari, 2005). ففي هذا الحديث أول الإمام ل"كتاب الله" بمراسمه، وهذا تلميح إلى آراء المعتزلة في قضية خلق القرآن.

ومثل تفسير هذا الحديث، وحل ألفاظه كما يلي "إن الله تعالى لا يَنَامُ ولا ينبغي له أن يَنَام يخفِضُ القِسْط ويَرفَعُه حجابُه قسط النُّور لو كشف طَبَقُه أحرقت سُبُحات وَجْهه كل شيء أدرَكَهُ بصره واضِعٌ يدَه لمسيء الليل ليتوب بالنهار ولمسيء النهار ليتوب بالليل حتى تطلعَ الشمس من مَغْرِبِها" (Hibban, 1993: 266).

"القِسْط: القِسْم من الرِّزق: أي يبْسُط لمن يشاء ويقْدِره. الطَّبَق: كل غطاء لازم. السُّبحات: جمع سُبْحة: كالغُرفات والظُّلمات في غُرْفة وظُلْمة، ويجوز فتح العين وتسكينها، والسُّبْحة: اسم لما يسَبَّح به ومنها سُبَح العجوز، لأنها تسبّح بهن. والمراد صفات الله جل ثناؤه التي يُسَبِّحُه بها المسبِّحون من جلاله وعظمته وقُدرته وكبريائه، وجهة ذاته ونفسه.

النور: الآيات البَيِّنات التي نصَبَها أعلاماً لتشهد عليه وتُطَرِّقُ إلى معرفته والاعتراف به، شبهت بالنور في إنارتها وهِدايتها، ولَمَّا كان من عادة الملوك أن تُضْرَبَ بَيْنَ أيديهم حُجُب إذا رآها الراءون علموا أنها هي التي يَحْتجِبُون وراءها، فاستدلّوا بها على مكانهم قيل حجابُه النور، أي: الذي يُسْتَدَلّ به عليه كما يستدلُّ بالحجاب على الملك المحتجب. هذه الآيات النيرة. ولو كُشِفَ طَبقه: أي طَبَق هذا الحجاب وما يُغَطّى منه وعُلِمَ جلالُه وعظمتُه علماً جليا غير استدلالي لما أطاقت النفوسُ ذلك ولهلك كلُّ من أدركه بصرُه، أي: أدرَكه علمه الجليّ فشُبّه بإدراك البصر لجلائه. لا ينبغي له أن ينام، أي يستحيل عليه ذلك. واضع يده من قولهم: وضع يَدَه عَنْ فلان إذا كَفَّ عنه، يعني: لا يعاجل المسيء بالعقوبة، بل يمهله ليتوب (Al-Zamakhshari, 2005).

مال الإمام هنا إلى بعض تلميحات من إثبات فكرة المعتزلة في قضية رؤية الله، وإلغاء بعض صفات الله العلى.

ولا يمكن على المراجع لهذا الكتاب أن يكشف على أفكاره الاعتزالية بالسهولة، ولا يطلع عليها إلا بالدقة التامة، لأنه يلمح عليها في صورة تفسير ألفاظ الغريب بلغته البليغة، وفصاحة كلامه، فلا بد على المراجع أن يتنبه في فهم كلامه وتمييزه بالطريقة الصحيحة.

الخاتمة:

إن منهج الإمام الزمخشري قد تميز بظواهر من جهة العمق والدقة والاستقصاء، والاستطراد والتفريع، والإكثار من الأمثلة والنظائر، والحرص على تثبيت الحقيقة، وصحة المروي. ومن هنا نستطيع أن نستلخص بالنتائج الآتية.

1- لقد انتهج الإمام في ترتيب الألفاظ، وفي إيراد الكلمات الغريبة من الأحاديث والآثار ترتيب الحروف الهجائية من حيث رتب كل باب على الحرف الأول مع الثاني، وهذا أمر مبتكر في كتب غريب الحديث.

2- إن منهج المؤلف في تفسير الألفاظ كان له ميزة فذة في شرح اللفظة الغريبة التي تدخل في المادة اللغوية التي عقدها، والألفاظ الغريبة التي تليها، ولم يقتصر الإمام على تفسير مفردات حديث الباب، وإنما يتناول مفرداته، ومفردات سائر الأحاديث التي يسردها لتقوية حكم الحديث، أو بيان معاني مفرداته وتأكيد أغراضها.

3- إن الإمام لم يلتزم بضوابط التوثق في إيراد الأحاديث، ولم يفرق بين المرفوع والموقوف، وأقوال التابعين، ولكن منهجه في استقصاء الدلالات وتقليب وجوه المعاني، وإعطاء التفسيرات كان من أجمل الظواهر المنهجية في الفائق، وهي تعطينا مثلا واضحا عن قدرة المؤلف وسعة علمه اللغوي.

4- على حسب ضوابط التعامل مع الأحاديث الغريبة في استنباط الأحكام، وإبراز الدلالات الشرعية، كان منهج الإمام على الطريق الفريد في تفصيل مذاهب الفقهاء وبيان جهات نظرهم، لكنه في مواضع كثيرة من الكتاب يكتفي بالحكم العام، أو بإعطاء رأيه الذي يوافق غالبا الأحناف.

5- حسب اطلاع الباحث على أن الإمام لم يعتمد غالبا على آراء مذهبه المنتمي إلى الاعتزالي في تفسير ألفاظ الحديث، وإظهار معناه، واستنباط أحكامه، لأنه جمع أغلب اهتمامه في هذا الكتاب في اللغة والأدب، وإظهار بلاغة النبي ﷺ، ولكن لم يفت في كتاباته بعض التلميحات التي تثبت بآراء المعتزلة.

References

Ahmad. (2009). *Al-Musnad.* Mu'assat al-Risalah.

Al-'Abbas, A. b. (1978). *Al-Wafiyyat.* Beirut: Dar al-Iqamat al-Jadidah.

Al-Bukhari, M. b. (1987). *Sahih al-Bukhari.* Kaherah: Dar al-Sha'b.

Al-Daruqutni, A. a.-H. (1985). *Al-'Ilal al-Waridat fi al-Ahadith al-Nabawiyyah.* Riyadh: Dar Tayyibah.

Al-Dhahabi, A. '. (n.d.). *Siyar A'lam al-Nubala'.* Beirut: Mu'assat al-Risalah.

Al-Jawzi, I. (2004). *Gharib al-Hadith.* Dar al-Kutub al-'Ilmiyyah.

Al-Jazari, I. a.-A. (1979). *Al-Nihayat fi Gharib al-Hadith.* Beirut: Al-Maktabat al-Islamiyyah.

Al-Juwayni, M. a.-S. (1119H). *Manhaj al-Zamakhshari fi Tafsir al-Qur'an wa Bayan I'jazuhu.* Mesir: Dar al-Ma'arif.

Al-Manas, S. '. (2013). Dawabit al-Ta'amul ma'a al-Gharib li Hadith a-Nabawi. *At-Tajdid - A Refereed Arabic Biannual, 34*(17).

Al-Samira'i, F. S. (1971). *Al-Dirasat al-Nahwiyyah wa al-Lughawiyyah 'inda al-Zamakhshari.* Baghdad: Maktabat al-Irshad.

Al-Suyuti, J. a.-D. (n.d.). *Al-Ali al-Masnu'ah fi al-Hadith al-Mawdu'ah.* Beirut: Dar al-Ma'rifah.

Al-Tabrani, A. Q. (1415H). *Al-Mu'jam al-Awsat.* Kaherah: Dar al-Haramayn.

Al-Tahawi, A. J. (1994). *Sharh Ma'ani al-Athar.* Kaherah: 'Alam al-Kutub.

Al-Zamakhshari, M. b. (2005). *Al-Fa'iq fi Gharib al-Hadith.* Beirut: Al-Maktabat al-'Asriyyah.

Dawud, A. (2004). *Sunan Abu Dawud.* Beirut: Mu'assat al-Risalah.

Hibban, I. (1993). *Sahih Ibn Hibban.* Beirut: Mu'assasat al-Risalah.

Khalifah, H. (n.d.). *Kashf al-Zunun 'an 'Usama al-Kutub wa al-Funun.* Beirut: Dar Ihya'i al-Turath al-'Arabi.

Muslim, I. a.-H. (1191). *Sahih Muslim.* Beirut: Dar al-Kutub al-'Ilmiyyah.

Qutaybah, I. (1977). *Gharib al-Hadith.* Baghdad: Matba'ah al-'Ani.

Shaybah, I. A. (2007). *Musannaf Ibn Abi Shaybah.* Jeddah: Dar al-Qiblat li al-Thaqafah al-Islamiyyah.